الفصل الثاني

المظاهر السلبية للحضارة الغربية

بمرور الزمن عَرَفت أفكار وآراء المفكرين والفلاسفة طريقها إلى الواقع العملى فى الدول الغربية ، وذلك بعد اقتناع رجال السياسة بهذه الآراء والفلسفات . الأمر الذى أدى إلى سيادة العديد من المظاهر السلبية فى تلك الدول . هذه المظاهر لم يقتصر أثرها على الحياة داخل الدول الغربية ذاتها ، بل تعداه إلى علاقة الدول الغربية ببقية دول العالم.

ولا يتسع المقام هنا لبيان جميع تلك المظاهر السلبية ، بل سيقتصر الأمر على بيان أهمها وهى : العنصرية، والعلمانية، والبروتستانتية، والصهيونية، والنازية . وفيما يلى بيان وتفصيل لتلك المظاهر .

❊❊❊

المبحث الأول

العنصرية

تطورت العنصرية الغربية مما يعرف بعنصرية التفاوت فى عصر التحديث – إلى ما يعرف بعنصرية التسوية فى عصر ما بعد الحداثة. ويرجع هذا التطور إلى أن العقل والعلم المنفصلين عن القيم الأخلاقية – قادران على رصد أمرين متناقضين:

* **الأول**: الاختلافات المادية بين البشر تلك التى تميز الجماعات البشرية بعضها عن بعض، وتؤكد الخصوصية العرقية والاثنية أو الجينية (**الوراثية**) أو اللونية لكل جماعه منها.

* **الثانى**: القانون الطبيعى المادى العام الذى يسرى على البشر فى كل زمان ومكان، وهو قانون لا يعترف بالخصوصية ولا يكترث بما يميز حضارة عن أخرى وإنساناً عن آخر.

ونتج عن هذين الأمرين المتناقضين عنصرية التفاوت ، وعنصرية التسوية:

1)عنصرية التفاوت : طبقا للرؤية الأولى فإن البشر أعراق وأجناس مختلفة ليس بينهم رابط. فهم مختلفون بشكل بيولوجى ، وإن بعضهم قوى متفوق والبعض الآخر ضعيف متخلف، وبناء على ذلك يصبح من حق القوى المتفوق أن يبيد أو يوظف الضعيف المتخلف لمصلحته.

وهناك ارتباط وثيق بين عنصرية التفاوت وبين الاستعمار الغربى لشعوب آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية بما فى ذلك إبادة الهنود الحمر فى أمريكا الشمالية وأستراليا.

لقد وضع الجنس الأبيض نفسه فى مركز الكون، ووضع بقية البشر مع الطبيعة (المادة) فى الهامش ، وبدلا من أن يكون الهدف من الوجود فى الكون هو تحقيق مصلحة الإنسان بوجه عام ، أصبح الهدف هو تحقيق مصلحة الإنسان الأبيض ، وبدلا من

الإيمان بأسبقية الإنسان على الطبيعة أصبح الإيمان بأسبقية الإنسان الأبيض على الطبيعة وعلى بقية البشر. لذلك كان الغزو الاستعمارى هو وسيلة السيطرة والاستغلال للطبيعة المادية وللمادة البشرية الموجودة عليها، أى بقية شعوب العالم.

وقد وضع الإنسان الغربى النظرية العرقية ليدعم بها دعواه بأنه هو مركز الكون دون ماعداه. والنظرية العرقية محاولة لتحديد من هو الإنسان حسب مقاييس مادية ملموسة بحتة. لذلك فإن "الأمة " هى مجموعة من البشر تتصف ببعض الصفات العرقية المادية الكامنة فيها، إلى الحد الذى جعل البعض يتخيل أن ثمة عصارات وغددًا داخل كل شعب هى المسئولة عن عبقريته، لذا لا يمكن لشعب آخر أن يحاكيها.

جاء فى دائرة المعارف البريطانية أن عبارة " **مجموعة عرقية**" تعنى جماعة من البشر لها صفات بيولوجية محددة، أو صفات ثقافية وقومية محددة أو مجموعة من كل هذه الأشياء . ومن ثم فإن التفوق العرقى لا يعبر عن نفسه فى خصائص بيولوجية وحسب، وإنما فى أشكال اثنية وحضارية مختلفة، لذلك تم افتراض أن بعض الأجناس فى تفوق وتطور دائم (**الجنس الأبيض**) وبعض الأجناس فى تخلف دائم (**بقية شعوب الأرض**).

ومن عنصرية التفاوت تولدت نظريات سياسية عديدة تتفاوت فى درجة عنصريتها، فمنها من يرى الشعوب الأخرى المتخلفة (**غير الغربية**) على أنهم أقرب إلى الحيوان منهم إلى البشر، وبالتالى يجب إبادتهم، ومنها ما اتخذ موقفا أقل تشددا ونظر للشعوب المتخلفة بأنهم يحتاجون إلى الرعاية، وبالتالى لابد من وضعهم تحت الوصاية.

إن عنصرية التفاوت كانت تستند إلى ادعاءات دينية، أو فكرية يطلقها الإنسان على نفسه ، ولكن بعد الثورة الصناعية الأولى بدأت أوربا ترى أن تفوقها يستند إلى حقائق مادية من إنتاج الصناعة مثل: الالآت والمعدات والمدافع وغير ذلك.

وقد اعترف المفكر النازى"**الفريد روزنبرج**" أثناء محاكمته ، أن العنصرية جزء أصيل من الحضارة الغربية المعاصرة، وأن هناك علاقة عضوية بين العنصرية والاستعمار، وأشار إلى أنه قرأ لفظ "**سوبر مان**" فى كتاب عن حياة اللورد كتشنر ، كما أنه قرأ عبارة"العنصر السيد" فى مؤلفات عالم الأجناس الأمريكى"**ماديسون**

جرانت " والعلامة الفرنسى "**جورج دى لابوج**" الذى دعا إلى أخلاقيات جديدة مبنية على الانتخاب الطبيعى، وعلى الصراع الدائم والبقاء للأصلح بدلا من الأخلاق المسيحية. وقد أوضح لابوج تصوره لتفوق الجنس الآرى باعتباره الجنس الأرقى الأقدر على الصراع والبقاء وذبح الآخرين . ولم يكن لابوج وحده الذى يروج لهذه الأفكار، بل كان يشاركه العديد من مفكرى الغرب مثل **أوتو أمون وارنست هايكل وأوتو فينينجر فى ألمانيا، وهوستون تشامبرلين الإنجليزى الأصل، وجيمس هنت مؤسس جمعية لندن الأنثروبولوجية** الذى أعلن أن الطريقة الوحيدة لجعل علم الأنثروبولوجيا أكثر حيادية هو تحريره من القيم الأخلاقية والإنسانية. ومن أهم المفكرين روبرت نوكس الذى أثرت أفكاره فى داروين صاحب نظرية التطور التى كان من السهل على دعاة العنصرية أن يتبنوا منظورها اللاأخلاقى ، وأن ينقلوا مفاهيمها من عالم الحيوان إلى عالم الإنسان كما فعل "**نيتشه**"، ومنذ ذلك الحين والإنسان الغربى يتحرك فى إطار شعارات عرقية حضارية صريحة مثل "عبء الرجل الأبيض فى إنجلترا ، "والمهمة الحضارية" فى فرنسا ، والقدر المحتوم فى الولايات المتحدة..... وغير ذلك.

2) **عنصرية التسوية:** تنطلق عنصرية التسوية من القول بأن هناك قانوناً مادياً واحداً يسرى على جميع المخلوقات- بصرف النظر عن كون هذه المخلوقات بشراً أو حيواناً أو أى كائن آخر- ومن ثم يصبح البشر مادة طبيعية عامة لا تتميز بأى خصائص إنسانية تفصلها عن الكائنات الأخرى، وبذلك يصبح البشر وحدات مادية إنتاجية استهلاكية خاضعة لقانون مادى عام . ويتسع نطاق التسوية إذاً ليسرى القانون المادى العام على الإنسان والحيوان والكائنات الأخرى، ويتم التسوية بينها. فعنصرية التسوية لا تساوى بين البشر بل تسويهم الواحد بالآخر بحيث لا يوجد فارق بين شعب أو آخر، ولا يوجد خصوصيات ولا اثنيات ولانتوءات هذا من ناحية،ومن ناحية أخرى لا فرق بين البشر وأى مخلوق آخر.

إن عنصرية التسوية لا تهاجم التفاوت بين الإنسان وأخيه الإنسان وحسب ، إنما تهاجم التفاوت بين الإنسان وأخيه" الحيوان والنبات، والمطلوب من الإنسان أن يصبح إنسانا طبيعيا عاما ليس له حدود إنسانية خاصة،إنسانًا مرنًا قادرًا على تغيير

قيمه بعد إشعار قصير، ويتقبل ما يمليه عليه قطاع اللذة من أحلام وأوهام . ويتميز هذا الإنسان بأن دوافعه واحتياجاته واستجاباته طبيعية مادية ، هذه الدوافع والاستجابات الطبيعية تبعده عن عالم الإنسان وتدخله فى عالم الأشياء الطبيعية ، وتجعل منه إنسانا ذا بعد واحد مادى لا يمكن تجاوزه. ولذلك هناك إصرار فى الغرب على الدفاع عن حقوق الشعوب المضطهدة (ماعدا الشعب الفلسطينى) وحقوق الشواذ والتمركز حول الأنثى وزواج المثليين(الرجل يتزوج رجلاً مثله، والمرأة تتزوج امرأة مثلها) ، فالدفاع هنا ليس عن الإنسان، وإنما فى واقع الأمر هجوم على أى قيم إنسانية مشتركة.

ويمكن توضيح ذلك من خلال ما حدث من أحد الأطباء النفسيين، إذ اقترح على الجمعية الأمريكية للطب النفسى أن تشطب الشذوذ الجنسى من قائمة الأمراض النفسية ، باعتبار أن الشذوذ الجنسى له أصول بيولوجية ، وبالتالى فإن الشاذ ليس مسئولًا عن شذوذه، أى أن هذا أمر طبيعى لادخل للإنسان فيه ، وقد وافقت الجمعية النفسية الأمريكية بكل ترحاب على هذا الاقتراح . وبعد عشرين عاماً ، عاد هذا الطبيب نفسه، وتراجع عن هذا الاقتراح ، ورأى أن الشذوذ الجنسى مرض يمكن العلاج منه. وقد قوبل هذا الرأى الآخر بالاستهجان، وقامت الدنيا ولم تقعد لأن هذا الرأى يفترض أن الشذوذ الجنسى يشكل انحرافا عن القيم الإنسانية.

وإذا كانت **ألمانيا النازية هى الدولة التى وصلت فيها عنصرية التفاوت قمتها، فإن الولايات المتحدة الأمريكية هى الدولة التى تصل فيها عنصرية التسوية إلى قمتها.** فالمجتمع الأمريكي مجتمع بلا تقاليد حضارية أو دينية سابقة، بل حضارة مهاجرين قادرين على التكيف السريع، والنشاط الأساسى للإنسان فى المجتمع الأمريكى هو الإنتاج والاستهلاك أو البيع والشراء ، والبحث عن اللذة وتعظيمها ، لذلك فهى حضارة يمكن أن يظهر فيها الإنسان الطبيعى ذو البعد الواحد.

وعنصرية التسوية تتسق تماما مع الاستهلاكية العالمية (النظام العالمى الجديد) تماما كما كانت عنصرية التفاوت تتسق تماما مع الاستعمار (النظام

العالمى القديم) ، وعلى الرغم من أن كلتا العنصريتين تدوران فى إطار مرجعية مادية للعالم ، إلا أن الاستعمار كان يستخدم فكرة التفاوت بين الأجناس لتبرير عملية تحويل شعوب آسيا وإفريقيا إلى مادة دنيا وعمالة رخيصة، ومصدر للمواد الخام، وأسواق يحتكرها البلد المستعمر يحل بها مشاكله، ويرفع بها مستواه الحضارى. أما الاستهلاكية العالمية فإنها تستخدم فكرة المساواة أو التسوية الطبيعية الكاملة بين البشر والكائنات الطبيعية لتحول البشر جميعا (**فى الشرق والغرب**) إلى مادة استهلاكية إنتاجية،وتحول العالم كله إلى سوق واحد.

وتظهر عنصرية التسوية المعادية للإنسان ، والتى تقوم بتسويته بالكائنات الأخرى فى أفكار **ريتشارد دوكنز** أستاذ علم الأحياء فى جامعة أكسفورد الذى يبدأ منظومته بالقول بأن الإيمان بوجود إله متجاوز للنظام الطبيعى- إن هو إلا خلل فى العقل يشبه الفيروس الذى يصيب جهاز الكومبيوتر . وقد بدأ هذا الأستاذ حركة سياسية لمنح القرود حقوقا متساوية مع البشر ، على أساس نظرية داروين التى تذهب إلى أن الإنسان والقردة متساويان من الناحية الجوهرية، والى أننا نحن أنفسنا قرود. وظهر ما يسمى " مشروع القرد الأعظم" الذى أصدر "إعلان القردة العليا" على غرار " إعلان حقوق الإنسان" ، ويبدأ الإعلان بما يلى: "نحن نطالب بتأسيس جماعة من القردة العليا من الأعضاء المتساوين فى الحقوق تضم ما يلى :

"البشر- الشمبانزى- الغوريلا- الأورانج – أوتانج". وقد عرَّفت عالمة **الأنثروبولوجيا** الهولندية بربارة **نوسكى** هدف هذا الإعلان بأنه "فك التمركز حول الإنسان".

❊❊❊

المبحث الثاني

العلمانية

يحاول الغرب فرض مصطلح العلمانية على جميع شعوب العالم، وخاصة العالم الإسلامى. هذا المصطلح يروج له الغرب بكل الوسائل المتاحة، ويربط بينه وبين التقدم العلمى الذى حققه الغرب. وإذا كانت الشعوب الأخرى تريد التقدم فعليها اتباع هذا المصطلح وهو العلمانية.

وقد تطور مفهوم العلمانية فى الغرب من العلمانية الجزئية إلى العلمانية الشاملة. والعلمانية الجزئية تعنى فصل الدين عن الدولة، أى فصل المؤسسات الدينية عن المؤسسات السياسية. أما العلمانية الشاملة فتعنى سيادة المبدأ المادى الواحد، الذى ينطبق على الإنسان وعلى الطبيعية ، ومن ثم فلا فرق بين الإنسان والطبيعة ، بل هما شىء واحد لا فرق بينهما ، ومن ثم يمكن إخضاعهما معاً للمقاييس الكمية الرياضية، دون الرجوع إلى أى قيم مطلقة معرفية كانت أم أخلاقية . ومن ثم تسوية الإنسان بالكائنات الأخرى والطبيعة من حوله ليصبح الإنسان **"إنسانا طبيعيا ماديـا"** ذا بعد واحد **"مادى"** فقط مثله مثل الطبيعة تماماً . وبما أن الطبيعة من وجهة نظرهم هى نظام يتحرك بلا هدف أو غاية ، نظام واحد مغلق مكتف بذاته، توجد مقومات حياته وحركته بداخله ، أى أن مركزه وقوة دفعه كامن حال فيه ، وهو نظام ضرورى كلى شامل لا يمكن لأى من المخلوقات تجاوزه . **وهذا يعنى أن الطبيعة لا حاجه لهـا فى خالق يدبر أمرها**. فالإنسان الطبيعى المادى بلا حدود ولا تتحكم فيه القيم والأعراف، هو جزء لا يتجزأ من الطبيعة خاضع تماما لقوانين الطبيعة تحركه أينما شاءت لا يمكنه الهرب منها.

لقد عبر هتلر عن" **الإنسان المادى الطبيعى**" حينما قال : يجب أن نكون مثل الطبيعة، والطبيعة لا تعرف الرحمة أو الشفقة".

أما عقل الإنسان فليس له أى فعالية ، فوجوده ليس ضروريا لحركة الكون ، بل إن العقل والخيال يشكلان عوائق تقف فى طريق محاولة الإنسان الإذعان للطبيعة، والتحرك معها والخضوع لها.

يمكن تفسير قيم الإنسان الطبيعى المادى ودوافعه ونشاطاته على أسس مادية ، إن ما يحرك الإنسان هو أخلاقيات طبيعية مادية تستند إلى المنفعة والمصلحة والرغبة فى البقاء. وإذا كانت الطبيعة فى حالة حركة دائمة ومتغيرة باستمرار، لذلك فإن الطبيعة البشرية دائمة التغير أيضا ، ومن ثم فلا توجد أى معايير دينية أو أخلاقية ، أو حتى إنسانية ، فمثل هذه المعايير خاضعة لقوانين الحركة أى التغير المستمر. إن الإنسان المادى تحركه دوافعه المادية سواء كانت اقتصادية أو جسمانية (**جنسية**) ، فهو من ناحية إنسان اقتصادى، ومن ناحية أخرى إنسان جسمانى أو جنسى:

* فالإنسان الاقتصادى تحركه الدوافع الاقتصادية والرغبة فى تحقيق الربح والثروة، وهو ما يعبر عنه بمبدأ المنفعة، حيث لا يعرف الإنسان سوى مصلحته الاقتصادية، ويجيد نشاطاً واحداً هو البيع والشراء ، ومن ثم فإن الإنسان ينتمى إلى عالم الاقتصاد العام و لا يعرف الأهداف السامية التى تتجاوز الحركة الاقتصادية.

* أما الإنسان الجسمانى (**الجنسى**) فإن ما يحركه دوافعه الجنسية وغدده وجهازه العصبى، وهو فى حركته يبحث عن اللذة ولا يعرف سوى المتعة.

إن الإنسان الطبيعى المادى هو نفسه الإنسان الاقتصادى ، وهو نفسه الإنسان الجسمانى ، وقد تختلف المضامين ولكن البنية واحدة . لو وضعنا كلمة"**اقتصاد**" أو كلمة" **جنس**" بدلاً من كلمة "**طبيعة**" لظل كل شىء على ما هو عليه ولما غيرنا شيئا.

لقد بدأ بعض العلماء فى الغرب فى توجيه النقد إلى العلمانية وآثارها السيئة على الإنسان والبيئة . ومن هؤلاء العلماء البروفسور "**كافين رايلى**" ، الذى تناول فى كتابه "**الغرب والعالم**" بعض قضايا الحداثة الغربية مثل: علاقة العلم بالأخلاق ، وانفصال العلم عن القيم الأخلاقية والإنسانية ، وظهور الشمولية والنزعة الاستهلاكية، أو ما يسميه "**أخلاق الصيرورة**" ويتناول "**كافين رايلى**" فى كتابه اعتماد التقدم العلمى والتكنولوجى فى الغرب فى بداية القرن التاسع عشر على مصادر

الطاقة غير المتجددة"**الوقود الحفرى**". فقد اعتمدت الصناعات التى أقيمت فى فترة الثورة العلمية الأولى على الفحم أولا ثم البترول بعد ذلك.

ومن المعروف علميا أن الفحم والبترول والغاز الطبيعى عبارة عن ثروات كونتها الطبيعة عبر ملايين السنين، وأن ما يستخرج منها لا يمكن تعويضه مرة أخرى. ويقول المؤلف: "هانحن نبددها خلال قرن أو قرنين، ثم يتابع قوله:"لقد سلكنا الطريق السهل، فأسرفنا فى تبديد هذه الكنوز وكأن الغد لن يأتى ، لقد اتجهت التكنولوجيا الغربية نحو التعدين بدلا من استغلال مصادر الطاقة المتاحة (**الهواء والماء**) لأن فكرة تسخير الطبيعة أصبحت متأصلة فى الحضارة الغربية ، كما أن التعدين هو "**صناعة اللصوص**" ، فالتعدين يسرق من الأرض طاقتها المتراكمة، وهو يسلب أجيال المستقبل ما تم ادخاره من ملايين السنين".

ثم يبين المؤلف ، أن الإسراف فى استخدام مصادر الطاقة غير المتجددة "**الفحم والبترول**" أدى إلى تلوث خطير فى البيئة الطبيعية وامتد التلوث إلى الماء والهواء والتربة . بالإضافة إلى أن الإسراف فى استخدام هذه المصادر من الطاقة أدى إلى تبديدها وربما نفادها فى فتره قصيرة جداً.

ويرى المؤلف أن السبب فى تبديد الموارد، وزيادة حدة التلوث البيئى لا يرجع إلى زيادة السكان ، إنما يرجع إلى الأنماط الاستهلاكية التى تشجعها الرأسمالية . فالرأسمالية لا تأخذ فى حساباتها عند إنتاج السلع والخدمات التكلفة الاجتماعية والبيئية ، ويتم حساب الأرباح منفصلة عن مثل هذه التكاليف، على سبيل المثال فإن توليد الطاقة من المفاعلات النووية يتم دون التفكير فى كيفية التخلص من النفايات النووية التى لا يعرف أحد مدى تكلفتها ومدى خطورتها على الجنس البشرى، حتى أن شركات التأمين الأمريكية ترفض التأمين على محطات توليد الكهرباء النووية. **إن المؤلف يبين أن منطق العلم الغربى فى ذاته منفصل عن الإطار الأخلاقى والإنسانى، وهذه هى نقطة قصوره. فالعلم الغربى قائم على انفصال الإنسان عن الطبيعة، ثم سيطرته عليها وتسخيرها لصالحه. ومن ثم فإن هذا الانفصال يؤدى إلى تبديدها وتدميرها. لقد نزع الإنسان الغربى القداسة عن كل شىء حتى عن الإنسان ذاته، وجعل من المنفعة والمتعة واللذة المقاييس الوحيدة والنهائية لحياته ووجوده** ، ومن هنا لا يملك إلا استهلاك ما حوله واستهلاك

نفسه . ويقول المؤلف: إنه سأل العالم الأمريكى الألمانى الأصل **" فرانز أوبنها يمر"** الذى ساهم فى اختراع القنبلة الذرية ، عن أى شىء فعله بعد أن حقق اكتشافه ، كانت إجابته قصيرة ومؤثرة **"لقد تقيأت"** . إن أوبنهايمر العالم المحايد المنفصل عن القيم اكتشف القنبلة الذرية ، أما أوبنهايمر الإنسان فكان تقيأ وقضى بقية حياته يحارب ضد القنبلة الذرية ولكن دون جدوى!!

وهذا يبين أن العنصر الربانى فى الإنسان لا يمكن تصفيته، فهو عنصر لصيق بإنسانية الإنسان وفطرته ، ويؤكد ذلك أن الشعوب الغربية إذا ارتكب أحد من أعضاء النخبة الحاكمة فعلا إباحيا أو غير أخلاقى فى حياتهم الخاصة، فإن الناس تحتج على ذلك، وتطالب باستقالته من منصبه ومحاكمته على مثل هذه الأفعال. فى حين أن عامة الناس يفعلون مثل هذه الأفعال الإباحية علنا دون أن يحاكمهم أحد، ودون أن ينكر عليهم ذلك أو يطالب بمعاقبتهم ، لأن مثل هذه الأفعال عادية جداً فى المجتمعات الغربية العلمانية . فكأن الجماهير تود أن تحتفظ بالنخبة الحاكمة ورموزها فى إطار المقدس، ولا تود أن تنزع عنها القداسة. لذلك تم إجبار الرئيس الأمريكى نيكسون على الاستقالة عقب فضيحة **"ووترجيـت"** تلك التى تجسس فيها على منافسه ، وتمت محاكمة الرئيس الأمريكى كلينتون لتحرشه الجنسى بالمتدربة فى البيت الأبيض. كما أن بعض الإنجليز طالب بإلغاء الملكية فى بريطانيا لأن بعض أعضاء الأسرة المالكة أتى ببعض الأفعال الإباحية. إن التجسس و التحرش الجنسى وكل الأفعال الإباحية يرتكبها عامة الناس فى الغرب، ولكن ينكرون ذلك على الحكام.

إن العلم إذا انفصل عن الدين والقيم أصبح مثل الشيطان الرجيم يدعى لنفسه الألوهية ،لذلك فإن الإنسان الغربى فى حاجة ماسة إلى نسق أخلاقى مستقل عنه ليكبله ويضع له حدوداً لا يتعداها ، أى أننا سنخرج – شئنا أم أبينا– من المادة والحياد إلى الأخلاق والالتزام ، ومن الدنيا المكتفية بذاتها إلى عالم مختلف يضع حدودا أو إطارا للأشياء.

إن هذه الأرض التى نعيش فيها لم يعطها لنا الله– سبحانه وتعالى– بل استخلفنا فيها لنعمرها، ورثناها من آبائنا وأجدادنا وسوف نورثها لأبنائنا وأحفادنا ، لذلك يجب المحافظة عليها وتنميتها باستمرار.

المبحث الثالث

البروتستانتية

البروتستانتية هى أحد المذاهب المسيحية المنتشرة بشكل واسع فى شمال أوربا والولايات المتحدة الأمريكية واستراليا . ويرجع أصل كلمة بروتستانتية إلى كلمة بروتستانت ومعناه المحتج . وقد نشأ هذا المذهب فى المانيا فى النصف الأول من القرن السادس عشر على يد (**مارتن لوثر 1483-1546**).

ويعتبر مارتن لوثر هو المخلص للمسيحيين من سلطات بابا الكنسية الكاثوليكية فى روما ، حيث شاهد مارتن لوثر فى اثناء زيارته للكنيسة الكاثوليكية فساد البابوية، ومظاهر الانحلال الخلقى المتفشى فى كل الأوساط الكنيسية ، ومن ثم تولد لديه عزم قوى على ضرورة إصلاح عقيدة الكنيسة وممارستها .

وتعتبر " **صكوك الغفران** " هى الشرارة التى أشعلت ثورة مارتن لوثر ضد البابا وكنيسة روما . حيث أصدر البابا (**ليو العاشر 1517م**) ما أسماه غفرانا شاملا للعالم!! يتمتع به من يشترى " **صك الغفران** " ! . على أن تخصص الأموال المتحصلة من بيع هذه الصكوك لبناء كنيسة القديس بطرس فى مدينة روما .

أعلن مارتن لوثر معارضته الشديدة هذا الانحراف البابوى ، مؤكدا على أن البابوية ليست مفوضية إلهية ، ولا يحق لها اصدار مثل هذه الصكوك التى يتم الاتجار بها لإيهام الناس بالإعفاء من آثار الخطيئة . ورأى مارتن لوثر أن تلك الصكوك تضعف الشعور بالندم الذى يثيره ارتكاب المعاصى والذنوب ، وتجعل من الخطيئة أمرا عاديا يمكن تسويته وديّا بصفقة تعقد مع بائع صك الغفران .

أرسل بابا روما " **صكوك الغفران** " عام **1517**م لتباع فى ألمانيا ، مما أدى إلى ثورة عارمة من مارتن لوثر ، واعتبر تلك الصكوك تحريفا للدين، وتحويلا له إلى تجارة دنيئة. ودعا إلى العودة إلى تعاليم الكتاب المقدس ، وعبر عن ذلك فى صورة وثيقة علقها على

باب كنيسة ويتنبيرج وضح فيها 95 من الخطايا والمساوئ التى يرتكبها بابا روما وكنيسته ، ثم نشرها فى كتاب أسماه " **الاعتراضات أو الأطروحات الخمس والتسعون**" .

تعاطف مع مارتن لوثر عدد كبير من العامة والأمراء الألمان على السواء ، خاصة وأن مارتن لوثر يؤيد نزعة الدولة الألمانية فى تولى الشئون الكنيسية والانفصال عن سطوة ونفوذ بابا روما وكنيسته . وقد انضم إلى مارتن لوثر عدد من رجال اللاهوت ، واشتد صراعه مع كنيسة روما وأعلن لوثر " أن البابا فى روما ما هو إلا لص وزعيم عصابة ، وأن عصابته تحمل اسم الكنيسة وأن روما هى بحر من الدنس والقذارة وهوة من الظلم ليس لها قرار، ويجب التلاحم لإزالة هذه اللعنة المشينة التى حاقت بالبشرية .

فى عام 1520م تولى مارتن لوثر إدارة الكنيسة فى ألمانيا ، ورفض المثول أمام البابا عندما استدعاه إلى روما ، مما أدى إلى إصدار البابا عام 1521م قراراً باباويا بحرمان مارتن لوثر من كهنوته، واحراق كل كتاباته . وعندما تلقى لوثر قرار البابا بحرمانه قام بإحراق هذا القرار وسط الجموع الحاشدة فى ويتنبيرج الذين أعلنوا خروجهم على الولاء لكنيسة روما الكاثوليكية ، وذلك بتحريض من بعض الأمراء الألمان من أصحاب دعوى الانفصال .

لقد أدت المعركة التى خاضها مارتن لوثر ضد بابا روما وكنيسته إلى تقسيم الكنيسة فى الغرب إلى قسمين : كاثوليكية ، وبروتستانتية .

وقد ساعدت كراهية أتباع كنيسة روما وتذمرهم من الضرائب التى فرضها عليهم البابا إلى سرعة انتشار المذاهب البروتسانتى ، فضلا عن تأييد الفلاحين للأفكار التى نادى بها مارتن لوثر أملا فى الحرية التى بشر بها كوسيله لإعتاقهم من أغلال العبودية التى فرضها عليهم الإقطاع والأمراء .

لقد دعا مارتن لوثر لإجراء إصلاح اجتماعى واقتصادى يتضمن: إلغاء الضرائب والإتاوات والمساعدات المختلفة التى تطلبها روما من الأتباع ، وإنهاء سلطة أولوية الكنيسة على الملوك والأمراء ، والحد من الأديرة وامتيازاتها ، وتحريم الربا ، وحظر الفائدة على القروض، وإبطال فرض العزوبية على الكهنة ، وإغلاق بيوت الدعارة !

وقد بدأ مارتن لوثر بنفسه فتزوج وعاش مع زوجته حتى مات عام **1546**م ، وسمح للرهبان بالزواج، وسمح لحاكم إحدى المقاطعات الألمانية بالجمع بين زوجتين.

البروتستانتية واليهودية :

كانت الكنيسة الكاثوليكية فى روما تتمسك باعتقادها: بعدم وجود ما يسمى بالأمة اليهودية ، وأن الرب طرد اليهود من فلسطين عقابا لهم على صلب المسيح عيسى عليه السلام، وأن فلسطين أصبحت إرثًا للمسيحيين دون اليهود . إلا أن مارتن لوثر فى خضم خصومته مع بابا روما ، وجد أن من الأفضل التقرب إلى اليهود ، فقام بتأليف كتيب صغير عام **1523**م بعنوان " **كون يسوع المسيح ولد يهودياً** " . يقول مارتن لوثر فى هذا الكتاب: " سوف أسوق النصوص الواردة بالكتاب المقدس التى تدل على أن يسوع المسيح كان يهوديا ولد من امرأة عذراء ، لعلّى بذلك أكتسب بعض اليهود لاعتناق العقيدة المسيحية، إن الحمقى من الباباوات والقسس ورجال الدين ذوى القلوب الفظة تعاملوا مع اليهود بطريقة جعلت كل من يأمل أن يكون مسيحيا مخلصا يتحول إلى يهودى ، لو كنت يهوديا ورأيت كل هؤلاء الحمقى يقودون ويعلمون العقيدة المسيحية فسأختار على البديهة أن أكون خنزيراً بدلا من أن أكون مسيحيا،لقد تعاملوا مع اليهود على أنهم كلاب لابشر".

ويؤكد مارتن لوثر أوجه التقارب مع اليهود فيقول : " إن اليهود هم أنسابنا وأولاد عم إلهنا ! ولو جاز لنا التباهى بدمه وجسده لقلنا: إن اليهود أقرب إلى إله المسيحيين من المسيحيين أنفسهم " . ولم يتوقف لوثر عند هذا الحد بل خاطب المسيحيين فى هذا الكتيب بقوله : " قبل أن نتفاخر بموقفنا يجب أن نتذكر أننا مجرد أغراب، أما اليهود فيتصل نسبهم بالمسيح نحن غرباء وأباعد ، أما هم فأقارب وبنوعمومة وإخوة الرب " !! .

إن دعوة مارتن لوثر للتسامح ومحاورة اليهود بالرفق لم تدم طويلا ، فقد نكص الرجل على عقبيه وارتد إلى النقيض ، وجاء أول إعلان عن خيبة أمله فى اليهود فى رسالة كتبها عام **1532**م يسب فيها اليهود قائلاً : " إن هؤلاء الكلاب يسخرون منا،

ويتهكمون على ديننا. وفى عام 1539م كتب قائلا " إنى عاجز عن تحويل اليهود إلى المسيحية ، إن سيدنا يسوع المسيح لم ينجح فى ذلك ، لكنى أستطيع أن أكمم أفواههم".

وفى كتابه الثانى " اليهود وأكاذيبهم الصادر عام 1543م ، صب مارتن لوثر جام غضبه على اليهود فى حملة ضارية ، طالبا من الأمراء الألمان العمل على اقتلاع اليهود من الأرض الألمانية وإذلالهم وعزلهم ومصادرة ثرواتهم وطردهم إلى أرض كنعان من حيث جاءوا لأنهم حاقدون وقتلة أسلموا المسيح للجلاد الرومانى فهم المسئولون عن صلب المسيح . ثم إن اليهود يعتدون على أقدس المقدسات المسيحية ، إذ يصفون السيدة مريم العذراء أم المسيح بالـ (. . . . .) ، ثم إن اليهود ينكرون رسولية المسيح لأن المسيح اليهودى المنتظر لابد وأن يجىء فى صورة محارب .

وقد زاد بغض مارتن لوثر لليهود عندما نجحوا فى تحويل بعض اتباعه إلى اليهودية فقال عنهم : " نحن الألمان نعرف ما هو اليهودى ، إذ يستحيل تحويل يهودى إلى المسيحية كما يستحيل تحويل الشيطان ، إن قلب اليهودى قاس كالخشب.. كالحجر.. كالحديد.. كالشيطان نفسه ، ولكن هذا لا يمنع دخول بعض اليهود فى المسيحية من أجل تخريبها وتدميرها من الداخل ، فقد اعترف حاخامات اليهود بأنهم أمروا بعض أبنائهم بالدخول فى جسم الكاثوليكية وذلك لتخريب الكنيسة من الداخل ، فقد صرح أكثرهم قائلين بأننا نحن الذين خلقنا الإصلاح الدينى للمسيحيين ، إن " جون فكالفن " كان واحدا من أولادنا – يهودى الأصل، أُمر بحمل الأمانه وشق الكنيسة الكاثوليكية فى سويسرا .

وبرغم تبرؤ مارتن لوثر من أفكاره الأولى عن اليهود، وهجومه عليهم فى كتاباته التالية ، إلا أن اليهود استغلوا الأفكار التى طرحها لوثر فى كتابه الأول " **كـ ون المسيح ولد يهوديا** " حيث أدركوا أنها تحمل بذور انقلاب تاريخى فى النظرة المسيحية لليهود ، لذلك نشر اليهود هذا الكتاب ووزعوه على نطاق واسع فى أوربا .

ورغم تراجع مارتن لوثر وهو أبو البروتستانتية، ومؤسس كنيستها، وهجومه على اليهود، إلا أن كل الكنائس المسيحية الأصولية البروتستانتية عميت عن تراجعه

وتصويباته بكتابه الثانى ، فتبرأت مما صدر عن لوثر ضد اليهود ، والتزمت بأفكاره الأولى حول يهودية المسيح وقرابته لهم .

وهكذا انتهى **"الإصلاح المسيحى"** الذى قام به مارتن لوثر وكالفن **"بتهويد المسيحية"**، وكان هذا التهود نتيجة منطقية لمشكلة فى المصادر العقائدية للمسيحية جعلت البروتستانت يعتمدون **" العهد القديم "** وهو التوراة أكثر مما يعتمدون **"العهد الجديد "** وهو الإنجيل . وقد أدى هذا المزيج الاعتقادى إلى أن تتحول المسيحية البروتستانتية من اضطهاد اليهود بتهمة قتل المسيح إلى حد يقترب من عبادتهم بأعتبارهم **"أبناء الرب ، وأقارب ابن الإله ، وشعب الله المختار "** وغير ذلك.

وهكذا لم تعد المصادر الاعتقادية عند المسيحيين تقتصر على العهد الجديد فقط وهو **"الإنجيل"** بل تشمل أيضا العهد القديم **"التوراة"** ، ولما كان حجم العهد القديم أكبر بكثير من العهد الجديد ، لذلك كان تأثير اليهودية فى المسيحية واردا ومنطقيا . ففى الترجمة العربية للكتاب المقدس يبلغ عدد صحفات العهد القديم **1258** صفحة ، بينما عدد صحفات العهد الجديد **420** صفحة ، أى أن التوراة تمثل **75**٪ من الكتاب المقدس الذى يؤمن به المسيحيون . وإذا أضفنا لذلك أن الإنجيل عبارة عن أربعة أناجيل تحكى نفس القصة وجدنا أن نسبة **90**٪ تقريبا مما يعتبر اليوم كتابا مقدسا عند المسيحيين هو كتاب توراتى عبرانى ، وأن الإنجيل لا يمثل أكثر من **10**٪ منه .ومن هنا يظهر الأثر الكبير للعهد القديم (**التوراة**) على المسيحية المعاصرة .

البروتستانتية البيوريتانية :

انقسمت الكنيسة البروتستانتية إلى قسمين : الحركة اللوثرية التى ترجع إلى مارتن لوثر المؤسس الحقيقى للكنيسة البروتستانتية ، ثم انشق عنها جون كالفن وأسس الكنيسة الكالفينية، وقد انتشرت الحركة الإصلاحية الكالفنية أولا فى سويسرا ثم فرنسا وهولندا وإنجلترا، ثم لاحقا فى الولايات المتحدة الأمريكية . ثم بعد ذلك خرج من المذهب البروتستانتى عدة فرق أصولية عرفت بالمسيحيين اليهود مرجعها العهد القديم (**التوراة**) .

وقد ساعد انشقاق مارتن لوثر عن الكنيسة الكاثوليكية فى روما على انشقاق الكنيسة البريطانية الانجليكانية واستقلالها أيضا عن روما عام 1534م فى عهد الملك هنرى الثامن ، بسبب رفض بابا روما فسخ زواج الملك ليتزوج بأخرى . وقد عين الملك هنرى نفسه زعيما لكنيسة كانتبرى . وفى عهد ابنته اليزابيث الأولى التى كانت تتبع المذهب البروتستانتى ثم عملت على ترسيخ البروتستانتية الإنجليكانية كمذهب لإنجلترا بدلا من الكاثوليكية .

وفى عهد اليزابيث الأولى انشقت البيوريتانية (**وهم أتباع كالفن**) عن البروتستانتية الإنجليكانية . ومصطلح البيوريتانيون يعنى الصفائيين أو الأتقياء أو المتطهرين أو التطهيريين، غير أن هذا المصطلح عند المذاهب المسيحية الأخرى يعنى التشدد أو المتشددين .

بعد وفاة الملكة إليزابيث الأولى تولى الملك جيمس ستيورات حكم إنجلترا، وكان هذا الملك بروتستانتيا مسيحيا ، وكان معظم حاشيته من البيوريتان . وقد تبدل الحال بعد موت هذا الملك ومجىء ابنه الملك تشارلز الأول الذى شبه البيوريتان بفرعون مصر . وقد اعتقل فى عهد هذا الملك الأساقفة البيوريتان، وأمر بأن تقطع أذان بعض الأساقفة البيوريتان الذين كتبوا عرائض احتجاج ضد الأسقف لود رئيس أساقفة كانتبرى ، لذلك شهدت هذه الفترة هجرة ملحوظة للبيوريتان إلى الولايات المتحدة الامريكية .

ولم يستمر الوضع طويلا فقد استطاع القائد البيوريتانى **"أوليفر كرومويل"** الإطاحة بالملك تشارلز الأول الذى أُعدم، وتم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية فى إنجلترا . وبذلك وصل البيوريتانيون لحكم بريطانيا فى القرن السابع عشر وقد مثل هذا أول ظهور للصهيونية المسيحية فى إطارها السياسى . وفى هذا الوقت راج فى بريطانيا اعتقاد بأن عام 1666م سيكون عاما حاسما وفارقا فى تاريخ اليهود ، إما بتحويلهم إلى المسيحية أو باستعادة مملكتهم الزمنية على أرض فلسطين ، ولكى يتم تنصير اليهود لابد من العمل على تجميعهم فى بريطانيا .

لكن كروميل رئيس الحكومة البريطانية البيوريتانية رأى أن الوجود اليهودى فى فلسطين هو الذى يمهد للمجىء الثانى للمسيح عيسى -عليه السلام- وفى عام

1649م قدم الأساقفة البيوريتان مذكرة للحكومة البريطانية مطالبين بأن يكون للشعب الإنجليزى شرف حمل أولاد وبنات إسرائيل إلى الأرض التى وعد الله بها أجدادهم .

وهكذا برزت فى إنجلترا أول دعوة لما يسمى ببعث الأمة اليهودية على أرض فلسطين، ومنذ ذلك الحين تجاوزت اليهودية حدود العقيدة الدينية لتتخذ بعدا سياسيا يقوم على فكرة العهد الإلهى بالأرض المقدسة للشعب المختار .

بعد استعادة الملك تشارلز الثانى لعرش أبيه مرة أخرى من أيدى البيوريتان ، بدأ البيوريتان فى الهجرة الثانية إلى أمريكا ، وازدادت هجرتهم فى عهد الملك جيمس الثانى الذى حاول منذ توليه الحكم عام 1685م إعادة إنجلترا للمذهب الكاثوليكى، وإخضاع الكنيسة البريطانية لكنيسة روما . وكان من الأسباب الأخرى التى دفعت البيوريتان إلى مغادرة إنجلترا هو اعتقادهم أن الرب على وشك إنزال عقابه بالأمة التى ترفض إطاعة أوامره ، وكذلك اعتقادهم بقرب قيام الساعة فلجئوا إلى الأرض الجديدة فى أمريكا . لقد امتزج البيوريتان مع اليهود فى أمريكا فوصفوا أنفسهم بأنهم أطفال إسرائيل، وأطلقوا على اليهود اسم أبناء الرب، وفرضوا تعلم اللغة العبرية بالمدارس والجامعات .

ولما كان الكاثوليك قد هاجروا أيضا إلى أمريكا ، لذلك دب الذعر والخوف فى قلوب البروتستانت ، الأمر الذى دفعهم إلى المطالبة بتطبيق مبدأ فصل الدين عن الدولة ، وهو ما تم فى صلب الدستور الأمريكى من خلال التعديل الدستورى الأول عام 1789م ، حيث نص هذا التعديل على : **" يحظر على الكونجرس إصدار أى قانون يرسخ الدين أو يمنع ممارسته "** ، وقد أُلحقت بهذه الفقرة الدستورية فقرة أخرى تنص على الحق فى حرية التعبير الدينى للأديان كافة .

الإنجيلية البروتستانتية :

انقسمت البروتستانتية فى أمريكا حول قضية الإيمان بحرفية الكتاب المقدس ، ومن ثم ظهرت ثلاثة اتجاهات أو مذاهب من عباءة البروتستانتية التقليدية وهى : البروتستانتية الأصولية ، ثم البروتستانتية الليبرالية ، ثم البروتستانتية الإنجيلية . ويرى أتباع البروتستانتية الإنجيلية أن العالم اليوم يعيش مرحلة الغفران السادس، وما قبل

الأخير الذى سينتهى بحرب تستمر سبعة أعوام يخوضها المسيح الدجال فى معركة هارميجدون . وأن المعركة ستنتهى بنجاة **144** ألف يهودى فقط ، وقد ترتب على هذا الاعتقاد دعم كبير لعودة اليهود إلى فلسطين لإقامة دولتهم المزعومة حتى تتحقق عودة المسيح عيسى -عليه السلام- حيث لن تتحقق عودة المسيح إلا بعد أن يسيطر اليهود على كافة الأرض الموعودة .[1]

ويطلق على الإنجيلية فى الولايات المتحدة **" المسيحية الجديدة "** كما يطلق على الإنجيليين اسم المسيحيين الجدد أو المولودين من جديد . وترجع هذه التسمية إلى أن الإنجيليين هم أولئك البروتستانت الذين يؤمنون بأنهم مروا بعد البلوغ بمرحلة إيمانية قد جعلتهم فى حالة من التطهر وكأنهم ولدوا من جديد ، أى أنهم على اعتقاد بأن تجاربهم العاطفية أو الإيمانية قد منحت لهم الخلاص الأبدى من الذنوب .

ويرى كثير من الإنجيليين على أن عام **1976**م هى سنة الميلاد الثانى للإنجيليين ، حيث شهدت انضمام عدد كبير من رموز المجتمع الأمريكى للمذهب الإنجيلى وعلى رأسهم الرئيس الأمريكى جيمى كارتر، الذى أعلن أنه مر بحالة الميلاد الثانى وأصبح مولوداً من جديد .

فى **1989**م تم تأسيس **" حركة التحالف المسيحى بأمريكا "** على يد القس الإنجيلى بات روبرتسون بغرض تشكيل تكتل يجمع أصوات المسيحيين الأصوليين بهدف التأثير على الانتخابات الأمريكية . وقد عكس هذا الكيان قدرة التيار الإنجيلى على الانتقال من الحركة ذات الطبيعة الدينية إلى المؤسسة التى يمكن أن تلعب دوراً سياسياً .

وقد أتاح تأسيس التحالف واكتسابه الشكل المؤسسى قدرة على التأثير والضغط على السلطتين التشريعية والتنفيذية ، فضلا عن إقامة شبكة علاقات مع كبار الاقتصاديين والسياسيين . ثم امتدت تلك العلاقات لتلقى بانعكاساتها على السياسة الخارجية الأمريكية . وقد سعى هذا التحالف الإنجيلى إلى اكتساب أعضاء جدد ومد

---

[1] من أجل ذلك ثار اليهود المتشددون على أرييل شارون عندما قرر الانسحاب الأحادى من قطاع غزة وفرحوا جداً عندما أصيب بالجلطة الدماغية وقالوا: هذا انتقام الرب منه عقابا له على الانسحاب من قطاع غزة .

صلاته بجماعات سياسية واجتماعية متعددة داخل الولايات المتحدة لاكتسابهم كحلفاء محتملين .

ويعتبر القس بات روبرتسون على رأس قائمة اليمين المسيحى المتطرف ، بل إنه هو أحد أهم عناصر المشهد الأصولى الأمريكى ، فهو ينتمى للطائفة التدبيرية، وهى أكثر الطوائف الإنجيلية تشدداً لاسيما فى تدعيمها لإسرائيل والدعوة لإعادة بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى من أجل أن يتمكن المسيح من العودة .

وقد ارتبط القس بات روبرتسون بعلاقات وثيقة مع الرئيس بوش الابن الذى أعطى اهتماما كبيراً بدعم المؤسسات الكنيسية المسماة **" جيوش الرحمة "** وذلك بشكل لم يسبقه فيه أى رئيس أمريكى .

الصهيونية المسيحية فى الولايات المتحدة الأمريكية :

من العجيب حقا أن الصهيونية المسيحية هى التى أوجدت فكرة الصهيونية اليهودية وليس العكس ، بل أن أعجب ما فى الأمر أن البروتستانت والإنجيليين هم من أسهموا بشكل مباشر فى خلق وإيجاد الصهيونية اليهودية ، ثم إيجاد المشروع الصهيونى بعد ذلك فى القرن التاسع عشر .

قبل أن تتأسس إسرائيل بزمن بعيد ، نجد أن البروتستانتية، ولاسيما الإنجيلية آمنت بحتمية البعث اليهودى، أو ما يسمى بحق العودة للشعب اليهودى إلى أرضه، وإقامة دولته فى فلسطين تمهيدا للعودة الثانية للمسيح، وتأسيس مملكة الألف عام .

إن الصهيونية المسيحية فى مناصرتها للكيان الصهيونى، وفى صهيونيتها أشد تطرفا وغلوا من صهيونية كثير من يهود أوربا والولايات المتحدة ، بل قد تبدو فى أحيان كثيرة أشد تطرفا وغلوا من بعض يهود إسرائيل أنفسهم . وذلك لأن الصهيونية المسيحية تنظر إلى إسرائيل على أنها قضاء إلهيّ ، ومن ثم يصبح دعم وتأييد إسرائيل هو التزاما دينيا فى سبيل مرضاة الرب ، وعليه تصبح معارضة سياساتها بمثابة خطيئة دينية.

وهكذا امتزجت كل من المعتقدات الدينية و السياسية، والادعاءات التاريخية فنشأت علاقة متميزة بين البروتستانتية واليهودية بشكل عام ، ثم بين الأصولية

البروتستانتية الإنجيلية وبين الصهيونية بشكل خاص ، فحدث التلاقى قبل أن تظهر الصهيونية كحركة، وقبل أن يظهر هيترتزل ذاته .

وقد جسد المؤتمر الصهيونى اليهودى الأول الذى انعقد عام **1897**م فى مدينة بال بسويسرا برئاسة تيودور هرتزل أول الخطوات العملية فى إشراف الصهيونية المسيحية على ولادة الصهيونية اليهودية . ويعتبر هذا المؤتمر نقلة نوعية وتغييرا فى موقف اليهود المتشددين الذين كانوا يرفضون التدخل البشرى لتجميعهم من الشتات، ومساعدتهم لاستيطان فلسطين، الأمر الذى يجب أن يتم بمشيئة الله عبر مسيحهم المنتظر، الذى يطلقون عليه " **المسيا** " ، فقد كان الحاخامات يعارضون بشدة التجمع فى فلسطين قبل ظهور المسيا ويعتبرونه تدخلا فى مشيئة الرب ، غير أن الضغط الشديد والمتواصل من قبل كل من الصهيونية المسيحية وبريطانيا والولايات المتحدة الامريكية قد أثمر ولادة الصهيونية اليهودية ومشروعها الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين .

وقد سعت الصهيونية المسيحية منذ بروزها قبل إنشاء الدولة اليهودية فى فلسطين إلى امتلاك كل الوسائل الكفيلة بالتأثير على الرأى العام الأمريكى ، وممارسة الضغوط السياسية على الإدارات الأمريكية المتعاقبة بغرض دعم هجرة اليهود إلى فلسطين وتبنى المشروع الصهيونى وإقامة الوطن اليهودى على أرض فلسطين ، من أجل ذلك استخدمت الصهيونية المسيحية كل وسائل العمل السياسى والإعلامى والكنسى ، فضلاً عن تقديم الدعم المادى لتسهيل ما سمى بعودة اليهود إلى الأرض المقدسة، وتيسير أمر هذه الهجرة ، كما أسهمت فى دعم وتمويل إنشاء مستعمرات يهودية استيطانية وزراعية على الأرض الفلسطينية .

وعقب قيام إسرائيل شهدت تلك الحقبة تنامياً ملحوظاً فى عدد ونشاط المنظمات الصهيونية المسيحية ، فقد اعتبرت الصهيونية المسيحية قيام إسرائيل بمثابة حدث أو إشارة تدلل على صحة معتقداتها ، لذلك برزت عدة منظمات صهيونية مسيحية استطاعت السيطرة على خطاب الكنيسة، وكثير من محطات التليفزيون والإذاعة ، قدمت عبرها برامج دينية ذات طابع جماهيرى وأسست جامعات ومدارس وأكاديميات، ومراكز بحث وغيرها من الأنشطة بهدف دعم الدولة العبرية . ويقدر عدد المنظمات الصهيونية المسيحية داخل الولايات المتحدة بأكثر من مائتى منظمة يمتد نشاط كثير منها إلى داخل إسرائيل .

نصل إلى نقطة أخيرة : فلعل أهم المخاطر التى يعكسها تنامى الظاهرة الإنجيلية السياسية وما تطرحه من منظومة قيمية توراتية – هى تلك الآثار السلبية التى ألقت أو توشك أن تلقى بظلالها على منظومة المجتمع الأمريكى، فالانسياق خلف تلك الرؤى والتصورات يمثل عملياً نقضاً للأساس الفلسفى الذى قامت عليه الولايات المتحدة ، وهذا فى حد ذاته أكبر تهديد قد تواجهه أمريكا بما يحمله من مخاطر على مستقبلها ووحدتها .

ولعل ما يزيد من الآثار السلبية لتلك الظاهرة – أن الأمر هنا لا يقتصر على مجرد خلل فى التوازنات بين قوى داخلية ، بل يتعداه إلى مستوى العلاقات الأمريكية مع العالم الخارجى ، فمما لا شك فيه أن تنامى دور الإنجيلية السياسية قد أحدث وسيحدث تحولاً جذرياً فى سياسة الولايات المتحدة الخارجية – خاصة فى ظل تعمد فرض هيمنة قيمية أو أخلاقية تتوافق مع أطروحات الإنجيلية السياسية ، وهو ما قد يمثل تحولاً نوعياً فى التوازنات الاستراتيجية الأمريكية ، ومن المرشح أن تتزايد آثاره السلبية والخطرة على علاقات الولايات المتحدة مع العالم الخارجى .

لذا فإن تناولنا السابق لأيديولوجية، وتاريخ الحركة يفضى بنا إلى نتيجة منطقية أو استشراف بديهى ، يمكن تلخيصه فى القول بأن القيم التى تدعيها الإنجيلية السياسية – هو أمر يلقى على الولايات المتحدة عبئاً لم تستطع أى من الدول أو المجتمعات تحمّله بنجاح لفترة زمنية طويلة ، فالإصرار الواضح على التفوق دون مراعاة القيم والمصالح والثقافات الأخرى سوف يقود تدريجياً إلى تكتل دول العالم ضد الولايات المتحدة مما سيجعلها فى النهاية معزولة ومستنزفة .[1]

❊❊❊

[1] لمزيد من التفاصيل يرجع إلى : جمال سلامة على ، أمة قلقة ، أمريكا الديمقراطية ويمينها الدينى والمحافظ ، دار النهضة العربية، القاهرة ، 1429هـ / 2008 م ، ص ص 443- 550 .

المبحث الرابع

الصهيونية

أدت الحداثة الغربية المنفصلة عن القيم الأخلاقية إلى ظهور كل من الصهيونية والنازية. والحداثة الغربية فى جوهرها هى مقدرة الإنسان على تغيير القيم التى يؤمن بها بعد وقت قصير، وهذا يعود إلى الإيمان بأن العالم فى تغير مستمر، وفى حالة صيرورة دائمة فلاثبات لأى شىء ، لا الواقع ، ولا القيم ، ولا الطبيعة البشرية ذاتها. إنه عالم لا تحكمه سوى إجراءات منفصلة عن القيم، وعندما يتحرر العالم من القيم الإنسانية والدينية والأخلاقية- تظهر قيمة واحدة قادرة على حسم الأمور ، وهى القوة . لذلك فإن كلا من الصهيونية والنازية تعبير عملى عن هذه الحداثة الغربية.

فالصهيونية حركة استعمارية استيطانية إحلالية استخدمت مجموعة من الأساطير لتجنيد الجماهير اليهودية. هذه الأساطير مختلفة ومنفصلة عن الواقع الإنسانى والتاريخى ، ومع هذا تعاطف العالم الغربى معها تعاطفاً شديداً ، ويرجع السبب فى ذلك إلى حاجة الغرب لقاعدة عسكرية ضخمة تخدم مصالحه ، والكيان الاستيطاني اليهودى فى فلسطين يقوم بهذه المهمة على أكمل وجه.

بدأت الصهيونية بأكذوبة صارت فيما بعد شعاراً لها " **أرض بلا شعب،لـشعب بلا أرض**" والمسافة بين الأكذوبة الصهيونية والواقع الفلسطينى كانت واسعة جداً ، لذا كان على الصهاينة أن يملئوا هذا الفراغ ويحسموا هذا التناقض.وكان الحل هو استخدام الإجراءات المنفصلة عن القيم الأخلاقية بحيث يُخلق " **أمر واقعى أو حقائق جديدة** "، أى أن ما يحسم الصراع فى نهاية الأمر هو العنف الصريح والقوة الغاشمة.

ولتحقيق الأمر الواقع أو الحقائق الجديدة استخدم الصهاينة التكتيك المسمى " **السور والبرج**" . فقد كانت العصابات الصهيونية تتسلل فى المساء ويحيطون

الأرض التى يريدون اغتصابها بسور ، ثم يقيمون برجا للحراسة يضعون عليه مدافعهم الرشاشة ، ثم يقومون بالزراعة المسلحة أى يحملون الفأس بيد والبندقية بالأخرى ، وبذلك تصبح الأرض أرضهم لأنهم قاموا بتنفيذ الإجراءات الدقيقة المنفصلة عن القيم. ويوضح هذا ما قالته **" جولدا مائير "** رئيسة الوزراء الإسرائيلة السابقة من أن رصاصة واحدة أكثر فاعلية من جميع قرارات مجلس الأمن.

وإذا كانت الشهادات التاريخية قد ظهرت فى وقت متأخر من جانب المقاتلين الإسرائيليين الذين شاركوا فى المذابح، فإن أهم الشهادات جاءت مبكراً عام **1948**، ولكن فى صورة عمل أدبى للأديب **"سـاميخ يزهـار"** الذى شارك فى الحرب كجندى، ثم قرر بعدها أن يضع تجربته ومشاهداته فى رواية قصيرة بعنوان **"خربـة خزاعة"** وهى اسم إحدى القرى الفلسطينية التى تعرض سكانها لجريمة التشريد العمدى تحت إرهاب السلاح. ويمكننا إذا وضعنا الشهادات التى تمكن بعض المؤرخين الإسرائيليين من جمعها فى الثمانينيات من العناصر التى شاركت فى أشهر المجازر وهى **"دير ياسين"** إلى جانب شهادة **"ساميخ يزهار"** أن نتبين على نحو قاطع أن الاعتبارات الأخلاقية والإنسانية والقانونية كانت معدومة لدى القادة الإسرائيليين وجنودهم بالكامل ، كان الاعتبار الأهم والحاكم لتوجيهات القيادة وسلوك الجنود- هو إخلاء الأرض بضراوة من سكانها لإقامة الدولة اليهودية.

إن غلبة وسيطرة ما يسمى فى الفكر السياسى الإسرائيلى **"الضرورات الصهيونية"** تلك التى تعنى تنحية كل المبادئ والاعتبارات الأخلاقية فى التعامل مع العرب- كانت السبب فى الحصار الذى فرضه النقاد الأدبيون على رواية **"خربـة خزاعة"** ومحاولة التعتيم عليها والإقلال من شأن مؤلفها بعد الحرب ، خاصة أن **"يزهار"** قد نشر الرواية عام **1949** فور انتهاء المعارك.

يقول الكولونيل **"مئير يائير"** وهو الذى شارك فى مذبحة دير ياسين: إن الأوامر قد صدرت إلى القوات المشتركة من الهاجاناه والإرجون ولحى لاحتلال قرية دير ياسين واقتحمتها القوات عام **1948** ، ويؤكد الشاهد أن احتلال القرية العزلاء قد تم بسهولة وانتهت المعركة بعد مناوشات خفيفة حيث لم يكن بالقرية رجال مقاتلون،

وهو ما أدى بأهل القرية إلى الاستسلام بسرعة. بعد الظهر خرجت قوات الإرجون ولحى لتفتيش البيوت وراحت تطلق رصاص بنادقها، وتستخدم سكاكينها فى أى شىء حى يتحرك سواء فى ذلك المسنون والنساء والحوامل والأطفال ، كما تم نقل 25 رجلا عربياً على «لورى» إلى منطقة فيها أحد المحاجر، وراح الجنود يتسلون بالتنشين على أجسادهم وبإطلاق النار عليهم حتى تم قتلهم جميعاً. أما شهادة الأديب **"سامیخ يزهار"** التى وضعها فى عمل أدبى فتفيد أن وحدته قد تلقت أمراً بالتوجه إلى قرية **"خربة خزاعة"** وطرد جميع سكانها خارج الحدود حيث إنهم **"إرهابيون"**. يصف الأديب حال القرية فنكتشف أنها خالية من الرجال المقاتلين، ولا توجد بها بندقية أو قطعة سلاح واحدة. يفيض الأديب فى تصوير بؤس القرية، وضعف المسنين، وقلة حيلتهم واستسلامهم لأوامر الجنود الإسرائيليين وذعرهم من الرصاص الذى ينطلق فى اتجاههم، ومن الحرائق التى قام الجنود بإشعالها فى بيوتهم إلى أن تم تحميلهم على «لوريات» اتجهت بهم صوب الحدود لتلقيهم فى العراء خارجها مشردين ليلقوا مصيرهم.

يقول الأديب يزهار: "من يذكر أنه كانت هنا قرية عربية تسمى **"خربة خزاعة"** لقد طردنا أهلها وورثناها منهم ، لقد جئنا إليها ، أطلقنا النار وحرقنا وفجرنا ودفعنا وطردنا". أما عن التعمد والوحشية فى سلوك الجنود ودوافعهم فيقول يزهار "اقتل جيداً وبسرعة، اقتل كثيراً دفعة واحدة «وبحرفنة» ، فليسقط عربيان برصاصة واحدة، وثلاثة إن استطعت ... لا مفر من ذلك". هكذا يصور يزهار فى روايته الحالة الفكرية أو النموذج الفكرى الذى دُرب عليه الجنود الإسرائيليون.. القتل بدم بارد، وبدون أى تردد مع الإكثار من القتلى والاقتصاد فى الذخيرة ، والمبرر الذى يوفر الدافع ويجرد الجندى من أى مشاعر إنسانية تجاه الضحايا العربية البريئة – هو الضرورة الصهيونية لإقامة دولة لليهود على أنقاض وحطام الشعب الفلسطينى. وإذا كانت الشهادة التى قدمها يزهار تتضمن وصفاً لمشاعر اللامبالاة لدى الجنود بصرخات الأمهات والأطفال وتنفيذ المهمة بأعلى درجة من الوحشية ، فإنه يصور كذلك نوع التعليم والتلقين الأيديولوجى الصهيونى الذى تلقاه الجنود قبل دخول ساحة المعركة حيث يقول فى روايته مستذكراً: "اقتل جيداً يا ابننا العزيز.. اقتل بملء

ذراعيك، اقتل من أجلنا بقدر الخير الذى أعطيناه لك عندما ربيناك صغيراً وعلمناه لك، اقتل بوفرة، اقتل كثيراً حتى نحصل فى النهاية على عالم جميل هادئ ملك لنا.. لا تتردد واقتل.. اقتل". إن هذه الفقرة فى رواية "خربة خزاعة " تجسد بوضوح طابع الحرب التى وقعت بين **"الهاجاناه والإرجون ولحى "** وهى المنظمات الحربية الرئيسة الصهيونية ضد السكان المدنيين فى المدن والقرى العربية .. إن هذه الفقرة تفصح لنا عن نوع التوجيه الفكرى والتعبئة النفسية الكامنة وراء مشاهد القتل الوحشى والإبادة الجماعية والطرد والتشريد لمئات الألوف من الفلسطينيين . وإذا كانت إسرائيل فى عام **2008**م تحتفل وتبتهج بعد ستين عاماً ، فإن علينا أن نذكرها بأن المسئولية تجاه مأساة الشعب الفلسطينى المشرد مازلت فى رقبتها هى وحلفائها فى الغرب.

لقد ارتد عدد كبير من مؤسسى الحركة الصهيونية عنها عندما اكتشفوا زيف شعارها **"أرض بلا شعب ، لشعب بلا أرض"** ،ففلسطين ليست أرضا بلا شعب، إنها مأهولة بالسكان العرب، لذلك وجه **"ماكس نوردو"** اللوم إلى هرتزل" فى المؤتمر الصهيونى الأول، لأنه لم يخبره أن فلسطين آهلة بالسكان ، فهدأ **"هرتزل"** من روعه وأخبره أن الأمور ستسوى. كذلك كان **"حاييم وايزمان"** – أول رئيس دولة لإسرائيل- يعرف بوجود العرب، وكان دائم الحديث عن ضرورة التآخى معهم. **"وناثان برنبام"** الذى نحت كلمة **"صهيونية"** والذى أسس الحركة مع **"هرتزل"** ، سئم الأكذوبة والعنف الكامن فيها ، فارتد عن الصهيونية، ورفض الحضارة الغربية المادية بأسرها وتبنى اليهودية الأرثوذكسية.أما **"يهودا ماجنيس"** أول رئيس للجامعة العبرية، فقد قضى معظم حياته يحاول إيجاد صيغة للسلام بين العرب واليهود، وفى آخر حياته رفض إعلان الدولة الصهيونية وحارب الفكرة ذاتها .

أما **"آحاد هعام"** وهو أهم فلاسفة الصهيونية ، عندما شاهد دماء العرب تنزف بغزارة فى فلسطين ، قال قولته الشهيرة "لو كان هذا هو الماشيح **"أى المسيح المخلص"** فإنى لا أود رؤية عودته". أما **" إسرائيل زانجويل"** القصاص البريطانى الذى يقال: إنه نحت الشعار المتناسق **"أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"** فقد أدرك العنف الكامن فى المشروع الاستيطانى الصهيونى فى فلسطين

فرفض هذا المشروع ، وأسس ما يسمى بالحركة الصهيونية الإقليمية؛ أى: حل المسألة الصهيونية عن طريق العثور على أرض خالية من السكان فى أحراش إفريقيا أو جبال أمريكا اللاتينية . عشية إعلان **" دولة إسرائيل"** سحب **"بن جوريـون"** كرسيا وانفرد بعيداً عن الاحتفالات، وحين سأله **" يورى أفنيرى"** عن حزنه غير المتوقع فى ليلة يفترض أنها فرحة له ولكل اليهود قال **"بـن جوريـون"** عبارته الشهيرة: **"الآن فقط بدأت أنهار الدماء فى الشرق الأوسط"**.

هذه هى اعترافات من خططوا ونفذوا الأكذوبة الصهيونية وكيف ارتدوا عنها عندما اكتشفوا حقيقتها.

إن الإجراءات المنفصلة عن القيم، تلك التى اتبعتها العصابات الصهيونية فى فلسطين ، والمتمثلة فى **" سياسة الأمر الواقع والحقائق الجديـدة"** – نابعة من الحضارة الغربية المنفصلة عن القيم الدينية والأخلاقية.

❊❊❊

المبحث الخامس

النازية

يرجع ظهور النازية إلى الهوان الذى أصاب ألمانيا بعد الحرب العالمية (**الأوربية**) الأولى وعزل الإمبراطور ، وخَسارة الأرض ، وما طالبت به معاهدة فرساى ألمانيا من الاعتراف بالذنب عن الحرب ، والانهيار الاقتصادى ، ولاسيما التضخم الجامح فى مطلع العشرينيات، والارتفاع المطّرد فى عدد العاطلين – **6** مليون عاطل عام **1932**- كل ذلك جعل الألمان أكثر استعداداً لقبول هتلر.

وقد أدرك هتلر ما للسلطة المطلقة من سحر على الألمان الذين قتلهم الشعور بالذلة والهوان لانعزالهم، وتفكك مجتمعهم من حولهم فقال فى كتابه كفاحى:" إن نفسية الجماهير لا تستهويها شخصية الفاتر الواهن، وإن قويا يخضعها لخير عندها من ضعيف تحكمه . وهى تؤثر من يأمرها على من يستجديها ، ويثلج صدرها عقيدة لا تتسامح مع غيرها، وتفضلها على حريات تنالها فلا تنتفع بها إلا قليلا . وهى عرضه دائما للشعور بأنها قد خذلت ، كما أنها غافلة عما تتعرض له من ترهيب روحى مشين ، واستغلال شنيع لحريتها الإنسانية".

لقد أدرك هتلر قيمة الاجتماع الجماهيرى، والاستعراض والموكب ، فى التغلب على مشاعر الضياع والانعزال وتوجيهها صوب جماعة هرمية جديدة متماسكة. فالفرد فى المجتمع الحديث يشعر بالانعزال، ويصاب بسهولة بالخوف من الوحدة ، ولكنه يجد فى الاجتماع الجماهيرى صورة جماعة متماسكة أكبر، من شأنها أن تترك فى نفسه أثرا مقويا مشجعا ، حيث يجد حوله الآلاف من الناس يشاركونه آراءه، فيستسلم هو نفسه للتأثير السحرى لما يطلق عليه " **إيحاء الجماهير**". ولم تكن الدولة النازية إلا أسوأ النظم الشمولية التى اجتاحت أوربا فى الربع الثانى من القرن العشرين ، مثل: الفاشية فى ايطاليا، و الستالينية فى روسيا، وامتدادها فى أوربا الشرقية.

وانطلاقا من هذا الأمر الواقع المتجرد من كل أعباء القيم الأخلاقية بدأت النازية فى تشييد دولتها القوية، وبدأت أفران الغاز. ومن المعروف أن أفران الغاز لم تشيد فى بداية الأمر من أجل اليهود وإنما شيدت أفران الغاز أول الأمر من أجل العجزة وضعاف العقول وغيرهم من البشر عديمي الجدوى والفائدة الذين يطلق عليهم اصطلاح **"أفواه تأكل ولاتنتج"** **"Uselessealers"** ولا يمكن الاعتراض على أفران الغاز لأنها لن تقضى على شىء نافع من منظور مادى ، وإنما ستقضى على شىء لا نفع من ورائه بعد اتخاذ الإجراءات اللازمة؛ أى: دراسات الجدوى العلمية المادية المحايدة المنفصلة عن القيم الأخلاقية، ثم استخدمت أفران الغاز بعد ذلك للقضاء على الجنود الألمان الذين كانوا يسقطون جرحى فى المعارك، لأن عملية تمريضهم وإطعامهم كانت تمثل عبئا على الاقتصاد الألمانى.

ثم طبق هذا المنطق العلمى المادى بعد ذلك على اليهود باعتبارهم أقلية عديمة الفائدة. فيهود شرق أوربا الذين تدفقوا على ألمانيا ، كانوا عبئا على الاقتصاد الألمانى، فأعداد كبيرة منهم كانت لا تملك المهارات التى يتطلبها الاقتصاد الألمانى، كما كان من بينهم نسبة كبيرة من المشتغلين بالمهن الهامشية مثل الدعارة، وتهريب المخدرات. وقد حاول النظام النازى ، فى بداية الأمر التخلص من يهود شرق أوربا بإعادتهم إلى دولهم الأصلية إلا أن هذه الدول أغلقت الأبواب فى وجوههم!

وعندما فشلت الوسائل العادية لإعادة يهود شرق أوربا إلى دولهم الأصلية، كان لابد من اتخاذ إجراءات أخرى ضد اليهود وغيرهم من العناصر التى لا تتسم بالكفاءة مثل: الغجر، وأبطال المقاومة فى فرنسا.ومن أهم هذه الإجراءات وأكثرها كفاءة معسكرات الاعتقال النازية، والتى كانت تقع على مقربة من المدن وليس داخلها لسهولة نقل المعتقلين، وتجنب تعطيل المرور. وعندما يصل المعتقلون يتم تقسيمهم إلى أطفال، وعجائز، ونساء، وغير قادرين على العمل، ثم رجال ونساء قادرين على العمل يفرض عليهم القيام ببعض التمرينات الرياضية حتى يحتفظوا بمستوى عال من اللياقة البدنية.

وكان على إدارة كل معسكر أن تعظم الربح بكل الوسائل الممكنة ، مثل أعمال السخرة بالنسبة للقادرين على العمل ، أما العناصر عديمة الفائدة فيتم تصنفيها والاستفادة من أجسادها بطرق مختلفة: حشو الأسنان الذهبى يرسل إلى الخزانة الألمانية، الشعر البشرى يصنع منه فرش الأحذية، أما الشحم البشرى فكان يستخدم فى صناعة بعض أنواع الصابون.

كان هذا الأمر يتم فى هدوء وموضوعية شديدة ، فمدير المعتقل كان يجلس فى بيته مع زوجته وأولاده يستمتع بكل منتجات الحضارة دون أى شعور بأى أعباء أخلاقية تجاه الذين يحرقون فى أفران الغاز ، لأن كل شىء يتم فى جو علمى معملى رهيب. إن النازية تمثل التطبيق العملى للحضارة العلمانية الغربية الحديثة لأنها نزعت القداسة عن كل شىء، وحكمت على الواقع بمقاييس مادية متحررة تماما من كل قيم أخلاقية. ولم يستثن أحد من المقصلة العلمية الإجرائية الباردة ، لا العجائز ولا الأطفال ولا حتى الجنود الألمان الجرحى أنفسهم ، إنها حيادية عملية تستحق الإعجاب والتقدير ، تماما مثل إعجاب الغرب بدولة إسرائيل الصهيونية التى تستند فى وجودها على مقصلة علمية كفء صنعت فى الولايات المتحدة الأمريكية، دون أن يكون لوجودها سند من أى قيم أخلاقية ، إنما سندها الوحيد فى الوجود هو سياسة الأمر الواقع بوسائله المختلفة: فوهة المدفع، والبندقية، والقنبلة، والصاروخ، والحصار، والحواجز المتتابعة التى تقطع أوصال القرى والمدن الفلسطينية.

تمثل النازية لحظة مهمة فى تاريخ الحضارة الغربية الحديثة ، حيث تعامل هذه الحضارة الإنسان معاملة الأشياء . وقد حول المجتمع الألمانى فى الحقبة النازية هذه المعاملة إلى حقيقة واقعة ، وظهر ذلك جليا فيما يلى:

1- اعتمدت الشركات الألمانية الكبرى على تسخير المعتقلين فى معسكرات الاعتقال حتى الموت، واستخدام أجسادهم حقولا للتجارب الطبية وجنت الأرباح من أفران الغاز المعتمدة على حرق أجسادهم.

2- تعتبر معسكرات الاعتقال النازية امتدادا لسعى الشركات الرأسمالية إلى تحقيق أقصى ربح ممكن ، مستخدمةً فى ذلك أحدث أساليب الإدارة المنفصلة عن القيم

الأخلاقية،على سبيل المثال اختيار شركة أى . ج . فاربن[*] معسكر أوسفيتر مقراً لمصنع المطاط الصناعى ، وقد فعلت الشركة ذلك بناء على وعد من معسكر الاعتقال بتسخير نزلائه للعمل حتى الموت ، تحت إشراف فرقة العاصفة النازية.

3- لم يكن هؤلاء المديرون فى معسكرات الاعتقال يتصرفون تصرف المتعصبين المهووسين بل تصرف المديرين الأكفاء . يقول أحد المراقبين إن **"هملر"** وهو أحد مديرى معسكرات الاعتقال عندما كان يتحدث إلى أحد عن الإبادة الجماعية " كان يتكلم عن إبادة الرجال والنساء والأطفال ببرود شديد ، كما يتكلم رجل الأعمال عن ميزانيته. ولم يكن فى حديثة أثر للعاطفة ، أو ما يوحى بالانفعال . كما ورد فى مذكرات ألبرت شبير وهو مهندس هتلر الأول " إن تركيزى على الإنتاج وإحصاءات الناتج ، طمس جميع الاعتبارات والمشاعر الإنسانية" .

بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر **2001**م ، ظهرت حقيقة الادعاءات بأن الولايات المتحدة هى قلعة الديمقراطية، وزعيمة العالم الحر والمدافعة عن حقوق الإنسان فى العالم . فعلى المستوى المحلى اتخذت سلسلة من القيود التى تحد من الحريات الفردية للمواطن الأمريكى، منها على سبيل المثال: المحاكم العسكرية ، وقانون **"الأدلة السرية"** وبمقتضاه يقدم ممثل الادعاء أدلة لا يسمح لمحامى الدفاع بالاطلاع عليها . كما تم تطبيق إجراءات تتسم بالتمييز ضد أبناء الأقليات ، خاصة من ينحدر من أصول عربية أو إسلامية.

أما على المستوى الدولى ، فقد تم غزو أفغانستان ثم العراق ، وما صاحب ذلك وما تلاه من ممارسات وحشية مثل: استهداف المدنين، وفضائح السجون السرية فى دول أوربا الشرقية، وسجن جوانتنامو، وسجن أبو غريب . بالإضافة إلى اعتبار " كل من ليس مع الغرب فهو ضده" ، والتهديد باستخدام القوة ضد أى دولة لا تستجيب لشروط الهيمنة الأمريكية ، بدعوى أنها من الدول" **المارقة أو محور الشر**" . بالإضافة إلى الدعم الامريكى المطلق للممارسات القمعية الإسرائيلية ضد الشعب

---

[*] شركة أى. ج . فارين شركة ألمانية متعددة الجنسيات كانت فى ذلك الوقت تنتج العديد من المنتجات ابتداء من أسبرين باير حتى الجازولين الصناعى.

الفلسطينى، وإحكام الحصار حول قطاع غزة، ومنع وصول أى إمدادات إليه بسبب واحد وهو اختياره" **لحركة حماس**" فى انتخابات حرة ديمقراطية شهد لها الجميع بالنزاهة .

من الطبيعي أن تؤدى كل هذه التطورات إلى التساؤل عن النموذج المثالى الذى يطرح للديمقراطية، والنموذج المطبق فعليا على أرض الواقع.إذا نظرنا إلى الأوضاع فى الولايات المتحدة الأمريكية- سنكتشف أن النموذج الديمقراطى المطبق فى الواقع يختلف بشكل جوهرى عن المثل الأعلى المطروح ، ويظهر ذلك جليًّا فيما يلى:

1- أن المعركة الانتخابية فى الدول الغربية، وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية تتكلف ملايين الدولارات ، ومن ثم فلا مكان فى هذه المعركة إلا للمرشح الغنى الذى يمكنه تدبير الأموال اللازمة للقيام بحملة انتخابية مستمرة وفعالة، ويمكنه شراء وسائل الإعلام، أما المرشح الذى لا يملك المال اللازم فمصيره التهميش الإعلامى. وهذا يعنى أن كبار الرأسماليين، وأصحاب المصالح وجماعات الضغط فى استطاعتهم التأثير فى الانتخابات بسبب ثرواتهم ، وأسباب أخرى لا علاقة لها بمصلحة الجماهير، أو مصلحة الوطن خاصة فى ظل سيطرة وسائل الإعلام.

2- استطاعت النخبة الحاكمة فى الولايات المتحدة تقسيم العمل والاختصاصات بينها وبين الجماهير، بحيث تصبح السياسة الخارجية، والأمن الخارجى من نصيب النخبة الحاكمة، على أن تترك الأمور المحلية مثل: النظام التعليمى، وصناديق المعاشات، والرعاية الصحية للجماهير . وبعد **11** سبتمبر **2001** نجحت النخبة الحاكمة فى الولايات المتحدة فى أن تجعل الأمن الداخلى من تخصصها عن طريق بث الرعب فى قلوب المواطنين الأمريكيين، وعلى كل مواطن أمريكى أن يبلغ الحكومة عن أى حركة مثيرة للشك تصدر عن أى أحد من جيرانه، أى: أنها تطلب منه بطريقة ماكرة أن يتجسس على جيرانه.

3- يرجع نجاح النخبة الحاكمة فى فرض هذا التقسيم للعمل لعدة أسباب: أهمها على الإطلاق: الحداثة المادية الغربية وتلك التى نجحت فى جعل الإنسان الغربى إنساناً اقتصاديا جسمانيا تحركه فقط مصلحته الاقتصادية المباشرة وسعادته أو لذته. مثل

هذا الإنسان ذي البعد الواحد لايكترث بأى أمور تقع خارج نطاق حواسه الخمسة، فالعالم الخارجى والسياسية الخارجية أمور بعيدة كل البعد عن بؤرة اهتمامه.

هذا الإنسان الجسمانى رغم اهتمامه بمصلحته الاقتصادية الخاصة إلا أنه لا يفهم التشابك فى العلاقات الاقتصادية، فهو يجهل تماماً العلاقة بين الإنفاق العسكرى فى أفغانستان والعراق وبين الإنفاق على الرعاية الصحية . إن تكاليف الحرب فى العراق تجاوزت 3 تريليون دولار حتى الربع الأول من عام 2008م ، وهذا المبلغ الضخم كان يمكن أن يزود أكثر من 30 مليون أمريكى بالمسكن و 30 مليون أمريكى بالرعاية الصحية . إن مثل هذه الإحصاءات لا تجد طريقها إلى النشر داخل الولايات المتحدة نفسها فى الوقت الذى تنشر فيه على العالم كله.

4- المواطن الأمريكى يصدق تماما كل ما يقوله الإعلام الموجه إليه من قبل الحكومة الأمريكية ، ولايستمع إلى أى إذاعات أجنبية حتى و إن كانت هيئة الإذاعة البريطانية . B.B.C. وتستغل النخبة الحاكمة ذلك فى توجيه الإعلام نحو الأهداف التى تريدها، حيث تركز القنوات التليفزيونية على الأخبار المحلية ، مثل فضائح النجوم وعروض الأزياء والبرامج الحوارية المليئة بالنكات الجنسية وشبه الجنسية . بينما تتناول وسائل الإعلام الأحداث العالمية بخفة وسطحية على اعتبار أنها مجرد قصص مسلية، وقد لو حظ أن نشرة قناة C.N.N التى تبث للعالم الخارجى مختلفة تماما عن النشرة التى يشاهدها المواطن الأمريكى . إن الأحداث المشتعلة فى العراق وأفغانستان وفلسطين والتى تقدمها C.N.N للعالم الخارجى لا يشاهدها المواطن الأمريكى على الإطلاق ، وإن ذكرت فإنها تذكر بشكل عابر وكأنها حادثه مسلية. وقد وصف أحد علماء الاجتماع الظاهرة الإعلامية هذه بمصطلح infirtainment وهو مشتق من كلمتي: الإعلام information والتسلية entertainment . ويتضح مدى انغلاق المواطن الامريكى إذا علمنا أن 20٪ فقط من المواطنين الأمريكيين يحملون جوازات سفر ، وأن معظم هؤلاء استخرجوا الجوازات للسفر إلى المكسيك أو كندا للسياحة أو لشراء الدواء الرخيص.

إن نظرة فاحصة على الصحف والمجلات الأمريكية ، نجد أنها مقسمة إلى صحف ومجلات للنخبة مثل: النيويورك تايمز، والواشنطن بوست، والنيوريبا بليك، وهى صحف ومجلات تغطى كل القضايا الأساسية فى العالم ولا تكتفى بمجرد نشر الأخبار بل تعطى تحليلات متعمقة فى كثير من الأحيان ، ولا يقرأ هذه الصحف والمجلات سوى أعضاء النخبة السياسية والثقافية ، لذا فإن توزيعها محدود. أما صحف مثل U.S. today فهى تركز على الشأن الداخلى فقط ، أما ما يتعلق بالعالم الخارجى فإنها تتبنى نفس وجهة نظر المحافظين الجدد بلا تحفظ.

أما غيرها من الصحف والمجلات والإذاعات والقنوات التليفزيونية المحلية ، فإنها تركز على الأخبار المتعلقة بكل ولاية أو مدينة فقط، مع الاهتمام البالغ بالأخبار التى تؤجج نزعات الفرد الاستهلاكية والجسدية، وحصره فى عالم الحواس والسلع المادية . كما أن عدداً من محطات الإذاعة والتليفزيون الإنجيلية تبشر بنوع من المسيحية المتجردة تماما من القيم الإنسانية والأخلاقية.

بالإضافة إلى صحف الفضائح والإثارة Tab laid وهي المتخصصة فى نشر قصص وفضائح النجوم وأبطال الرياضة فلا تذكر شيئا عن الأخبار المحلية أو الدولية . وهكذا فإن الإعلام الأمريكى يفرغ الإنسان من أى اهتمامات خارج نطاق مصالحه الشخصية المادية الضيقة فيضيق أفقه و لا يهتم بشىء آخر.

ومن أهم القضايا التى تواجهها الديمقراطية فى التطبيق مشكله المرجعية النهائية ، أى مجموع القيم التى تحكم الإجراءات الديمقراطية ذاتها . إن 51٪ من الناخبين فقط يستطيع أن يقرر القانون والحقيقة والقيمة ، أى؛ أن عدد الأصابع المرفوعة هو المرجعية النهائية، فهى ديمقراطية بلا مرجعية فلسفية أو أخلاقية أو معرفية؛ ومن ثم يمكن تسميتها: الديمقراطية المنفصلة عن القيم الأخلاقية.

وتعد تجربه النازية نموذجا لتلك الديمقراطية التى لا مرجعية لها ، والتى تعتمد على عد الأصابع المرفوعة . فقد وصل هتلر إلى الحكم من خلال القنوات الشرعية الديمقراطية، وحاز رضا وإعجاب الشعب الألمانى، وعندما بدأ الحكم النازى فى إبادة الأقليات العرقية والدينية غير المرغوب فيها، مثل الغجر والمعوقين واليهود، باعتبارهم

عناصر بشرية تستهلك ولا تنتج ، وافق أغلبية الشعب الألمانى عـلى عمليـات التطهـير العرقى.

كما وافقت الشعوب الغربية عن طريق ديمقراطية عدّ الأصابع على إرسال الجيوش لاستعمار دول آسيا وإفريقيا وأمريكا الجنوبية فأبادت ما أبادت من بشر ، وسخرت مـا سخرت من شعوب، ونهبت ما نهبت من أراض ، ووافقت هذه الشعوب الغربية عـلى ذلك بشكل بالغ الديمقراطية تماما كما توافق الأغلبية الساحقة مـن أعـضاء الكنيـست الإسرائيلى على عمليات البطش والذبح والحصار التـى تمارسـها القـوات الإسرائيليـة ضد الشعب الفلسطينى. فالديمقراطية الإسرائيلية هى ديمقراطية بلا مرجعية أخلاقية مثلها كمثل عصابات المافيـا تمامـاً، تلـك التـى تعطـى لنفـسها الحـق فى سـلب وقتـل الآخرين والاستمتاع بما تحصل عليه منهم. فالصهاينة لا يختلفون فى هذا عن عصابات المافيا الذين يطبقون الإجراءات الديمقراطية بكل صرامـة فى توزيـع الغنـائم وتحديـد مناطق النفوذ ومن يخرق هذه الإجراءات يعاقب بالقتل.

وترجع الوحشية التى تمارسها الديمقراطية الغربية فى حـق الـشعوب الأخـرى إلى ارتباطها الوثيق بالنظام الاقتصادى الرأسمالى الذى جعل "الربح" هو الهدف الأسمى والوحيد من العملية الإنتاجية ، وإهمال باقى الجوانب الأخرى سواء كانت اقتـصادية، أو اجتماعية، أو إنسانية . فالرأسمالى فردا كان أم شركة يسعى لتحقيق أقصى ربح ممكـن بأقل تكلفة ممكنة، وهذا هو الهدف الأسمى له.